تيسيـر تعليـم النحـو
وجهـ ـة نظـ ـ ـر

د. عز الدين البدوي النجار

(١)

عصرنا العربي الحاضر، بظـروفه وبأسبابه، أحوج العصور – ولعله أقدرها أيضا – إلى أن يعود إلى تراثه النحوي العظيم، على اختلاف مذاهبه وعصـوره ومراميه. ينفي عنه الفضول، ويستخرج من جمهور مادته نحوا واحدا جامعا متجانسا فكرا ومنهجا، مطابقًا للعربية العالية صورة وروحا، على ما ينبغي في نحو كل لغة؛ مرتفقًا في صنيعه بالوثيق المحكم من علم القدماء، ولا سيما المتقدمون والمُقَدمونَ منهـم، وما تسكُن إليه النفس من محاسن علوم المُحدثين.

فإذا ما تهيأ ذلك فهو مرجعيةُ العصر النحويةُ الشاملة، تستخرج منها بيسر وبطمأنينة معا قواعد اللغة، أي ما يسمى قواعد نحوها، التي ستلقى إلى أبناء العربية، وإلى طلابها من غير أبنائها، في أطوار تعليمهم المختلفة.

وصحةُ هذه القواعد في ذاتها، المتفق عليها عند محققي أهل العلم، حِجاز بينها وبين غِشاوات التوهم، التي تنشئها دعوى الصعوبة، يشعثُ القائلون بها من أمر هذه العربية؛ بظاهر حق أحيانا، وبغير حق أصلاً أحيانا كثيرة أخرى.

وتمام هذه الصحة حينذاك أن تؤدى إلى طلابها والمنتفعين بها بوسائل وأساليب علمية وفنية متقنة، فيها من حقائق علوم التربية والنفس، وفيها من فن أصحاب الفن والمهارة في تأدية الأشياء.

(٢)

وبحسب هذا التصور الذي أوجزنا بيانه أشد الإيجاز، فإن قضية (تيسير تعليم

النحو) تخرج من نطاق المادة العلمية الخالصة أصلاً، لتكون وفْقًا على أساليب العرض والأداء والتفسير، وهي تبتدئ بتصميم المناهج التعليمية العامة وتنتهي عند أستاذ المادة نفسه، مفتاح القضية في جانبها المحسوس وبيت قصيدها، ففي يده تتوهج هذه المناهج أو تخمد، ومعه يحيا طالب العلم بشاشة العلم وسرائره وروحه، أو يبغض إليه ذلك، ويضرب بينه وبينه بالأسداد.

وهو غِنِي عن البيان أن مِثْلَ ما رجوناه مشروع قومي كبير، لا تنهض به إلا عصبةٌ أولو قوة من ثقات أهل العلم، في الأرض العربية وغير العربية، تتناصر على إحراز هذه المادة المترامية الأطراف، وتنفَذُ بنفاذ الروح إلى روح المادة، قبل نفاذ الفكر، ومجاهدات العقول.

وإلى أن يكون ما نرجو كونه فإن عمود النحو الموروثِ صالحٌ كل الصلاح لتسديد اللسان والقلم فيما يتعاورانه من نصوص العربية التاريخية، فأما هذه العربية المحدثة فسيأتيك بعض حديثها بعد.

وهذا كله هو لباب قضيتنا هذه فيما نراه، بمعزل عن حومةِ الجَدل، وهي تحتمل منه الكثير. وهو على هذا النحو قضية العربية في مؤتنفِ الزمان، لا قضيةُ ظرف راهن من ظروفها وظروفه.

وهو جانب العلم والرأي أيضا في هذه القضية، وفي كل قضية أخرى من قضايا العلم أو الرأي؛ ومنتهى ذلك خواطر تجيش بها صدور أصحابها وتشتمل عليها دفاترهم، ولا تتحول إلى حقائق لها في الوجود الإنساني أثَر، ما لم ينهض بها على الأرض - كما يقال - ناهض؛ إذ كان «الرأي لمن أنفَذَه لا لمن رآه» كما قال القدماء.

وهذا بعينه هو معذِرةُ كل مجمع أو هيئة علمية حين تدعو ذوي رأي الأمةِ وعلمِها وحِفَاظِها لمعالجة قضايا اللغة والفكر والعلم. والأملُ كبير، وأسبابه حاضرة: أن تنزل توصيات المؤتمر في قضيته هذه منزلتها المرجوة.

(٣)

وقد بقيت أنظار ومفارقات كثيرة وراء ما زعمناه لُبابا، يوجه إليه ويمليه: نسق العلم نفسه، وتاريخُه، وما يرجى له، وما ينبغي فيه؛ لا أحوالٌ عارضة من أحوال متعلمي العربية في عصرها الراهن. وهي أنظار ومفارقات لا يحتمل جمـلتها - فضلاً عن تفصيلها - المقام، هذه قطعة منها نسوقها هي الأخرى بأشد الإيجاز.

يجفو عن حقيقة النحو العربي، أي عن حقيقة تراثه المكتوب فيه، من يعده شيئًا واحدا متجانسا، صدر عن قلب رجل واحد، ثم ينحِي عليه بذم، أو يقْبِلُ عليه بثناء.

نحو العربية صناعةٌ إنسانية، ونظر طويلٌ مستقرئ مستنبط، في مادة لغوية هائلةِ الاتساع. وضِعت فيه الأوضاع في سياقات تاريخية وثقافية مختلفة، وتعاقب عليه رجالٌ مختلفو المنازع والقرائح والقُوى. وقد ألقى ذلك كله بظلاله عليه، وأثر فيه آثاره.

ثم هو وصف وتصنيف لتلك المادة اللغوية، واجتهاد في تحكيم أحكامها ومحاولةٌ دائبةٌ غريبة لتعليل ذلك كلّه، وتوجيهِه، والتماسِ وجوهِ الحكمةِ فيه.

ومن أجل ذلك كان النحو محتملاً بداهةً إعادةَ النظرِ في جوانب منه؛ إلا أن جوهره مع ذلك، وهو ما أحكم وضعه وتعليله الكبار المصححون، معدود في بدائع الفكر الإنساني لا العربي وحده؛ وهو يعلو – بما صح من وضعه وتعليله – على أكثر ما يسمى نقدا من نقد العصر الحديث، وحاجته – إن كان محتاجا إلى شيء – أن يفْهم على وجهه، لا أن يعاد النظر فيه.

(٤)

ودونك نصا عبقري الدلالة على حصافة القوم، وعلى لطف أنظارهم، وعلى أنهم- أعني الكبار المصححين منهم – وضعوا ما وضعوه وضع اجتهادٍ لا وضع استبداد.

سئل الخليل عن العلل التي يعتل بها في النحو: عن العرب أخذتها، أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال:

إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفَت مواقع كلامها، وقام في

عقولها عِلَلُه، وإن لم ينقل ذلك عنها؛ واعتللت أنا بما عندي أنه علةٌ لما عللْته منه، فإن أكن أصبت العلةَ فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علةٌ له فَمثَلِي في ذلك مثَلُ رجلٍ حكيمٍ دخل دارا محكمةَ البناء عجيبةَ النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمةُ بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، [لِعلةٍ] سنحت له وخطرت بباله، محتمِلةٍ لذلك.

فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمِلٌ أن يكون عِلةً لذلك. فإن سنح لغيري عِلةٌ لما عللْته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها.

قلت: وهذا كلام نفيس يشبه صاحبه رحمه الله.

(٥)

والذي وضِع من هذا النحو وضِع على مقاصد مختلفة، وإنما يأخـذ الآخِذُ منه - معلما أو متعلما - ما تطيقه الحال، ويقتضه المقام. هذه قضيةُ العقل في كل شيئ، فإن لم يصنع الآخذُ ذلك فمن جهتين لا جهة أساء: ظلم نفسه، وظلم العلم الذي يلتمس تعلمه أو تعليمه.

قال الكسائي لتلميذه علي بن المبارك المعروف بالأحمر: هل فيك من خير ؟ قال: نعم. قال: قد عزمت على أن استخلفَك على أولاد الرشيد. فقال الأحمر: لعلي لا أفي بما يحتاجون إليه. قال الكسائي: إنما يحتاجون كُل يوم إلى مسألتين في النحو، واثنتين من معاني الشعر، وأحرفٍ من اللغة، وأنا ألقنك ذلك كل يوم قبل أن تأتيهم، فتحفظه وتعلمهم.

وقال أبو عمر الجَرمي راوي كتاب سيبويه مع المازني عن الأخفش: أنا مذ ثلاثون سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه.

قال أبو جعفر الطبري: فحدثت به محمد بن يزيد - يعني المبرد - على وجه

التعجب والإنكار، فقال: أنا سمعت الجَرمِي يقول هذا – وأومأ بيديه إلى أذنيه – وذلك أن أبا عمر الجَرمي كان صاحب حديث، فلما عِلم كتاب سيبويه تفَقه في الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يتعلم منه النظر والتفتيش.

قلت: فلم يمنع الجَرمِي تقديره العظيم للكتاب أن يختصره اختصاره الذي انتفع الناس به؛ إذ كان الغرض الأول من تعلم النحو، بعد تصحيح مقدماته وأسبابه – أن يقيم المتعلم لسانه بالعربية، بما يخرج به من هجنةِ اللحن، وهو الذي من أجله وضِع النحو أصلاً، ثم اتسع فيما بعد ليكون طِباق اللغةِ وقانونها، والحَكم فيما يصِح من أوضاعها وما لا يصِح.

وفي عصر الجَرمِي و (مختصره) قال الجاحظُ في رياضة الصبي، أي تعليمه، كاشفًا ببيانه وتغلغله ونفاذه أصلاً من أصول التعليم على الإطلاق:

«و أما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا ِبقَدرِ ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلةٌ عما هو أولى به، ومذْهِلٌ عما هو أرد عليه، من رواية المثل، والشاهد، والخبر الصادق، والتعبير البارع ».

(٦)

ونخلُص بعد – اضطرارا – إلى ما هو أمس بالحال: هذا النحو الذي يراد تيسير تعليمِهِ، نحو أيةِ لغةٍ هو ؟

- إن كانت تلك اللغةُ هي هذه اللغةَ المعاصرةَ التي يقف عليها الناشئُ أولَ ما يقـف، والتي هي من جنس قولهم: ذهبت رباب إلى المدرسةِ ! وقرأ باسم الدرس ! وقفز الأرنب فوق العشبِ ! إن كانت اللغة من هذا القبيل[1] فإن القول بتخلف النحو عن استيعابها، وبعجز الطالب عن استيعاب هذا النحو شيء شبيه بالهزل، ولا يكاد يقول به عاقل على سبيل الجد. وإن كانت هي هذه العربيةَ الدقيقةَ الوضع،

(١) ولا يخرج عن مستواه غير قليل من متداول العربية في هذا العصر.

البعيدةَ الغورِ في أحوال الفكر والنفس، والتي يقرأ الطالب نصوصا من نصوصها في مراحل تعليمه المختلفة، فإن الأمر أمر لغةٍ إذن، لا ينفع في استيعاب عبقريتها الخاصة كُل نحوٍ في الدنيا، وكُل أسلوبٍ من أساليب تقريبه وتيسيره، إن لم يكن متلقي ذلك بموضع من يريده ويطلبه أشد طلب.

- وإنما غايةُ النحو أن يدل على اللغة دلالته المتعددة المعروفة، وأن يصحح ما خرج عن الجادة منها، لا أن يصنعها في وجدان طلابها. والمفارقة في هذه الحال أنه:

كيف يفهم المتعلم الدليلَ فَهمه الحَق والمدلولُ عليه غائب ؟

(٧)

- عودةُ العاميةِ جذَعةً في عصر العلم المستحكم، لا في عصور العوام المغلوبين على أمرهم في ظلمات التاريخ، واستبدادها بالأذن العربية تمت ضعف التكوين اللغوي، المعين بصحته وبكثرة حضوره في القلب، على إدراك المفاهيم والتصورات النحوية. وقد كان صبيان الكتاتيب، فضلاً عن طلاب العلم الراشدين، يحفظون القرآن الكريم، وهو بنصه المُنزل صورةُ العربيةِ الأتم.
- وعلى أن غيبة العربية عن وجدان المتعلم العربي أيسر خطبا، وأهون أثرا من آفة أخرى نحسب أنها أصل الداء:
- كيف يعقِلُ قلب الطالبِ قاعدةً من قواعد اللغة، يسدد بها لسانه أو يده، إن كان لا يعنيه أصلاً أن يجري ما يقول ويكتب على صور السداد ؟
- وكيف يحرز امرؤ صورةَ لغة، فضلاً عن فقه أسرارها، إن كانت في قلبه الخامل منهزمةً مدبرة، وكيف يرجى لها معه وعلى لسانه الحياةُ وهي في روحه جثمانٌ خامد بلا روح ؟
- وهذا العربي، كيف استطاع وجدانه العاقل أن يمسك لغة أجنبية عنه بالكلية: صوتا ومفردة وتركيبا، ولم يستطع ذلك مع لغته العربية بأدنى جهد ومن أيسر سبيل ؟ ثم يغض الطرف هنا عما أهمل ولا يبالي، ويتمجد هناك بما أحرز وحقق ولا يبالي ؟

- وفي عصر العلم الذي نعيشه: كيف ينفَذُ طالب العلم إلى مطالبِ العلم الدقيقة، ويلاعب الحاسب بالألعاب المعقدة – وهذا في مراحل التعليم المدرسي لا الجامعي – ثم يعيا بتوجيه عبارة بلسان قومه ؟

اللغة اليابانية – وقبيلها من لغات الشرق الأقصى - يضرب بصعوبتها وصعوبة كتابتها المثل – لكن اليابانيين يتكلمون اليابانية، وينطِقون بها كل شيء، وينطِق بها من غير بني جلدتهم خلائق، ألم يفتتح في دمشق قسم لليابانية تنافس عليه المتنافسون[1] ؟

(٨)

- منتهى القول: أن اللغة نص متكاملٌ له روح، أولُ طُرقِهِ إلى وجدان المتعلمِ السماع، فإذا ما استوى هذا النص في وجدانه تاما قاس عليه، ولم تعد له إلى الوسائل الصناعية حاجة، إلا أن هذا متعذر تمامه – بأسبابه - على قربه في عصرنا هذا خاصـة؛ لوقوعه بين قطبي العصر التربويين المُعلمين العظيمين: التعليم والإعلام، ولا بد من النحو إذن، دليلاً إلى طريق الصواب في النظم، أي في بناء الجمل، وفي الإعراب على حد سواء.
- وبإزاء ذلك فإن عسر تعلمِ النحوِ في زمننا هذا الأخير مسبب بأسبابٍ شِداد، منها عَيبةُ اللغةِ باعتبارها مادةً حيةً عن الوجدانِ العربي، والاستهانةُ بها، وانعدام القصدِ، أو ضعفُه، إلى تعلّمِها، وقلةُ الالتفاتِ إلى عظيمِ خطَرِها في حياةِ الفرد والتمع. غير أن هذا، حتى مع التفوق عليه، لا ينفي الحاجةَ إلى العودِ إلى تراثِ نحوِ العربيةِ العظيمِ عودا شاملاً، وهو ما كنا أسلفنا بيانه أولاً.

---

(١) كان هذا سنة٢٠٠٢م، وهي السنة التي عقد المع فيها مؤتمره لتيسير تعليم النحو الذي ألقي فيه هذا البحث.